المحاضرة السابعة

الاتجـاه النقدي الـرومانـسي

تمهيد:

لقد سادت الكلاسيكية بمعناها الفكري/ الأدبي/النقدي ردحا من الزمن، فقدّم المفكرون/ الأدباء/ النقاد أعمالا إبداعية متميزة، لكن الكلاسيكية؟ بمفهومها الواسع أفل نجمها بفعل تغير/ تحول الأوضاع الاجتماعية/ التاريخية/ السياسية/ الثقافية، وكان من: « نتائج كل ذلك أن انهار المذهب الكلاسيكي، وراحت النفوس تفتش في أعماقها عن تعبير بديل... فلم يكن ذلك التعبير البديل إلا المذهب الرومانسي »[1]. ومن ثم فإنه قبل الحديث عن **الاتجاه الرومانسي** ضمن الإطار النقدي الحديث حريٌّ بنا أن نتحدث عن إطاره الدلالي والمصطلحي.

- **في المصطلح:**

الرومانسية/ الرومانتيكية: كلمتان تحملان أكثر من دلالة ومعنى، كالخيال/ الوجدان/ العاطفة/ الطبيعي وغيرها، وأما إذا عدنا إلى أصولها التكوينية التاريخية الإبداعية؛ فإنها في القديم كانت تعني: «مجموع القصص الخيالي القديم، القائم على أشكال إبداعية من قبيل: حكايات الفروسية/ المغامرة اللاواقعي وغيرها »[2]. وبالمقابل فإن البحث في تكوينيتها النقدية الأدبية يمكن القول إنها كانت بعيدة عن هذا الإطار النقدي، من منطلق أنها بقيت منحسرة ضمن إطار دلالة الانتشار العاطفي أو المتحرر المطلق، ضمن هذه المرجعية دخلت الرومانسية المربع النقدي الأدبي متأخرة. ذلك أنها توقفت عند حدود الوصف لكل منجز

---

[1]– ينظر : عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، دار النهضة، د.ط، بيروت، 1972، ص246.

[2]– ينظر: ليليان. فرست: الرومانسية، تر: ع. الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية، ج1، ط2، بيروت،1983. ص:33.

فكري/ أدبي/ نقدي، ووفق إطاره الإبداعي لا غير، ومن ثم الرفض لكل ما هو قائم/ ثابت. هذا ما جعل دلالتها في جانب آخر، تكون غير مقيدة: « بحدود عصر معين، ومن ثم تؤلف نوعا من خاصية جوهرية لأسلوبية تطالعنا في أوقات مختلفة واتجاهات فنية متنوعة»[1]. مما يعني في جانب آخر أنها دخلت إبان القرن الثامن عشر ميلادي التصنيف المذهبي النقدي الحديث، بحيث شكلت اتجاها نقديا حديثا قائما على مجموعة من المبادئ الفكرية والقواعد النقدية، وهذا ما جعلها تبرز كتيار نقدي حديث بارز ضمن مسار الحركة النقدية العربية الحديثة. ولعل من أهم هذه المبادئ والقواعد التي قامت عليها يمكن أن نشير إليها فيما يأتي:

-الملامح النقدية الرومانسية:

- ✓ التحرر والإبداع، مع الرفض المطلق لكل القيود/ الثوابت السائدة، أي أن الرومانسية: ثورة تحررية للأدب من سيطرة الآداب الإغريقية والرومانسية ومن كافة الأصول والقواعد الخاصة بالكلاسيكية.
- ✓ الاعتداد بالذاتي/ العاطفي/ الاندفاعي، في مقابل:الموضوعي/العقلي/ المنطقي الكلاسيكي أي التروع إلى فوارق الطبيعة وأعاجيبها، والجنوح إلى حياة الفطرة، ورفض لبشاعة الحياة الصناعية المعقدة وضغوطاتها على الفرد، ذلك أن:« الأديب في هذا المذهب يطلق لعاطفته العنان ويسترسل معها، ويهرب من وطأة الحياة المادية على روحه، ويعيش ويتمتع في دنيا خاصة من صنع خياله، ويأوي إلى الطبيعة كأم حانية يتغنى بجمالها»[2].
- ✓ الاحتفاء بالشعبي/ الجماهيري، من منطلق تجاوز الرسمي الثابت، وهذا من خلال إعلان ثورة على كل الأوضاع الاجتماعية، ومن ثم مناصرة الشعبي على الرسمي، مما

---

[1]- إتيان سوريو: الجمالية عبر العصور، تر: ميشال عاصي، عويدات، ط2، لبنان، 1983، ص: 231.

[2]- ينظر: عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، ص248.

يعني في جانب آخر، أن **الإبداعات الرومانسية**، أشد التحاما واتصالا بالغرائز البشرية وأحب إليها.

- ✓ الغوص في الباطني النفسي، في مقابل السطحي، ذلك أن الرومانسية تميزت بالاعتداد بالأحاسيس النفسية والخيالية الروحية، مع تجاوز صريح للعقل والحكمة.
- ✓ الاهتمام بالبسيط الجميل، على حساب المعقد الجوهري.
- ✓ التركيز على فعل المنفعة، في مقابل المنفعة المادية الفردية.

وبناء عليه فإن الاتجاه الرومانسي، سواء في إطاره الأدبي أم النقدي، جاء كرد فعل لبعض الاتجاهات الفكرية النقدية الأدبية المثالية، التي برزت في تلك الفترة من القرن الثامن عشر ميلادي، ذلك أنها قيدت حريات الأفراد ومن ثم قزّمت إبداعاتهم الأدبية والنقدية، بل نالت من شخصياتهم، لذلك جاء **الاتجاه الرومانسي** في عمومه دعما للروح الفردية الإبداعية المتحررة، فمنذ: « القرن الماضي والرومانتيكيون يُجمعون أو يكادون على أن الأدب/ النقد الصحيح هو القائم على التحرر والانطلاق نحو الكشف والريادة، فراح الرومانتيكيون يرفعون على الناس قيودهم، وعلى المجتمع نُظمه وتفكيره، فكانوا أول ثائر به في هذا العصر الحديث »[1].

ولعل هذا ما تجلى في كثير من الإبداعات الأدبية الشعرية الحديثة، حيث تميزت أطره التعبيرية بلغة متحررة ومتجددة وموسيقية بامتياز، وبتنوع بارز للقوافي، مما يحيل في الوقت نفسه، على تدفق عاطفي فعلي لكتلة من العواطف المنتشرة. لذلك اتسمت هذه الإبداعات الرومانسية بجمال الفكر والخيال والأسلوب والعاطفة، وهي كلها عناصر فنية اتسمت بها مختلف الأعمال الإبداعية الحديثة، بحيث بقيت هذه: « الغاية الفنية مطلبا مشروعا من مطالب الأدباء/ النقاد الرومانسيين إلى هذا اليوم»[2].

---

[1]– ينظر: حلمي مرزوق: الرومانتيكية والواقعية في الأدب، دار النهضة، د.ط، بيروت، 1983، ص: 15.

[2]– نفسه، ص: 50.

-ملامح النقد الرومانسي:

يبدو أن الاتجاه الرومانسي جاء كردة فعل قوية على كل التيارات الفكرية والنقدية الكلاسيكية، وهذا من منطلق أنها اتسمت بخصائص مختلفة من عصر إلى آخر، بل ومن ناقد/ أديب إلى آخر، وعليه يمكن أن نتحسس بعض الملامح الرومانسية في الإبداعات الأدبية الحديثة:

صحيح أن **التيارات النقدية الرومانسية** قامت كلها على مبدأ **رفض التقليد** والتحرر والإبداع، وهذا ما أخذت به المدارس النقدية الأدبية الحديثة، من منطلق ثورتها على المقلدين، ومن ثم الدعوة الصريحة إلى: « تبني الفلسفة التحررية وذلك هو أبرز معالمها النقدية»[1]. ومن ثم فإن التركيز على فكرة التحرر الإبداعي ضمن عمليات التشكيل الفني، يعني في جانب آخر، تجاوز الالتزام السلبي إلى الايجابي، القائم على الإحساس المفعم بالتحرر ومن ثم تجلت **دعوة للتجديد الإبداعي**، بدءًا من **الشخصية الفردية**، وصولا إلى **نتاجها الإبداعي التحرري**. فعلى مستوى **الإبداع الشعري الحديث**، نسجل **تجاوزا** واضحا لمفهوم **الشعر القديم**، بحيث انطلقوا من أنه يُمثل وجدان/ إحساس، عواطف/ رؤية، ومن ثم فقد توافق الشكل الحديث مع المضمون، ذلك أن الكثير من الثوابت القديمة تجاوزها المبدعون الرومانسيون، من قبيل: كسر القيود الشكلية **كالقافية**، ومن ثم تجلى شكل شعري حديث، هو: **الشعر المرسل**، القائم فنيا على التنوع في تشكيل القافية مع توافق الوحدة **الشعرية** مع **الشعورية**، لِيلي بعد ذلك ظهور أشكال شعرية جديدة، تجلت فنياتها دراميا وسرديا ورمزيا.

---

[1]- **حلمي مرزوق: الرومانتيكية والواقعية في الأدب، ص: 20.**

وأما على مستوى الاعتداد بالذات المبدعة الرومانسية، فإن الكثير من المبدعين الرومانسيين، قد تمكنوا من التعبير عمّا في ذواتهم/ أنفسهم وبشكل بارز وواضح يقول **إلياس أبو شبكة** – رائد الرومانسية بامتياز –:

اجْرَح القَلبَ واسْقِ شِعْرك مِنه ***فَدَمُ القَلبِ خمْرةُ الأقْـــــلامِ

مَصْــدَرُ الصِــدْقِ في الشُّعورِ ***وفِي القَلْبِ مَهْبطُ الإلْهَام

وَإذَا أَنْتَ لَمْ تُعَــذب وتغمس***قَلمًا فِي قَـــــرَارَة الآلاَم

وهذا بخلاف الكتلة القمعية، التي سلطها المبدع الكلاسيكي على ذاته، من منطلق اعتداده بالعقل والمنطق، لكن بالمقابل فإن المبدع الرومانسي رفض كل القيود المعنوية/ المادية التي قد تشكل حاجزا في نقل مختلف الجوانب الشعورية النفسية والفزيولوجية القوية والضعيفة، ذلك أن: « حرية الإنسان عندهم تنبع من ذاته، وهذه الذات نبعٌ ثرٌ وعالم غني بالقيم والضوابط لأنها تزخر بأصداء المبدأ الأسمى–الوجدان العاطفي– »[1]. مما يعني أن **الكتلة الوجدانية** التي تحتفي بها الذات الرومانسية تشكل أحد العناصر البنائية، التي يتكئ عليها الإبداع الرومانسي في العصر الحديث. ذلك أن الكثير من الإبداعات الشعرية الرومانسية، تحتفي بموضوعة الكآبة والتشاؤم، مما أصبحت في الشعر المعاصر، تشكل أحد المقولات الرومانسية البارزة في الإبداع، بحيث تتجلى روح المبدع شديدة الحساسية مرتبطة أشد الارتباط بذاته النفسية، ذلك أنه مستعد لكل مواجهة لمظاهر القهر التي ينتجها الواقع من خلال بعض الأحاسيس كالآلام والشرور وغيرها. ومن ثم فإن الإعلاء/ بنسق خطاب الألم، أصبح يُشكل مبدأ عاما عند الرومانسيين في عمليات التشكيل الفني الإبداعي الأدبي. هذا بالإضافة إلى احتفائهم بالصورة الأدبية النفسية من منطلق إدراكهم

[1]– **حلمي مرزوق: الرومانتيكية والواقعية في الأدب، ص: 41.**

للبون الكبير بينهم وبين الكلاسيكيين، ذلك أن تكوينيتها الجمالية عندهم قائمة على أساس البناء الجزئي والمنطقي لها، في حين أنها عند الرومانسيين قائمة جماليتها على سعة الخيال المنتشر، بحيث إن التشكيل الفني لها لا يخرج عن إطار الانسياب الخيالي والاندفاع الوجداني والعاطفي لها. ومن ثم أصبح عنصر الخيال يشكل إطارا بنائيا وجماليا وفنيا؛ إنه اللغة القوية التي ينقل بها البدع أحاسيسه العميقة التي تتجلى ضمن مسارات الإبداع، ومن ثم تمنح العمل الأدبي وحدة فنية وجمالية سرمدية، ليبقى في النهاية يُمثل وسيلة لإدراك كنه حقائق هذا العالم. ولعل هذا ما اعتمده بعض المبدعين الرومانسيين في إبداعاتهم الأدبية، يقول : صلاح لبكي :

هُنا اللَيل قُومي نَهزّ المـــنى ***بِأرْجُـــوحَة مِن ضَيَاءِ القَمـــرِ

وَتَنْفلِت أحْلامنَا الرَاقِصات *** عَلَى خَفَقَات النُّجُومِ الغـــرَر

فَنَسْرح فَوْقَ غمَامِ الفِراشِ*** ونَمْرَح تحْتَ غُصُون الشَجَر-[1]-

وفي مقابل هذا فقد اهتموا باستثمار عناصر الطبيعة في إبداعاتهم الأدبية الحديثة، سواء ما كان منها فطريا أم معنويا، ومن ثم فقد شكلت عناصر الطبيعة الإطار البنائي الجمالي في عمليات التشكيل الإبداعي الرومانسي. ذلك أن العودة إلى استلهام العوالم الطبيعية في الإبداع، يعني بطريقة أم بأخرى، استدعاء للعوالم النقية والطاهرة، كما أنه في الوقت نفسه ابتعاد عن العوالم القاتمة؛ إنها باختصار العودة إلى الأصول الكائنة والممكنة فيها، وضمن هذا السياق يقول" **إيليا أبو ماضي**":

السُّحب تَرْكُض فِي الفَضَاء*** الرَحْب رَكْضَ الخَائِفينَ

والشمس تبدو خلفـــها***صفْـــرَاءَ عَاصِبـــة الجَبِين

---

[1]- **إيليا حاوي: صلاح لبكي، دار الكتاب، د.ط، بيروت، 1981، ص10.**

والبحر ساج صامـــت**★ فِيـــــه خُشُـــوعَ الزَاهِدين

وبناء عليه، فإن هذا المقطع الشعري يبدو أنه ثري بالعناصر الطبيعية، التي أرادها الشاعر من أجل تصوير مشهد الغروب، كما يراه هو، لا كما يراه غيره، لذلك فقد برزت هذه العناصر في إطارها الحسي الحي الذاتي للتعبير عن العمق النفسي لمشهد الغروب. ومن هنا يمكن التأكيد على أن المبدع الرومانسي لا يكترث بالتشكيل اللغوي والبلاغي، بقدر ما يحرص على التشكيل النفسي العاطفي الطبيعي البسيط، القائم على القوة الخيالية الإنسيابية العميقة، لذلك كانت: «الطبيعة سبيلهم إلى هذا التحرر، فهي سبيل العصر في كل فلسفة أو منطق صحيح... لقد آمنوا بنُظم علوية أرادتها الطبيعة »[1].

وبناء عليه، يبدو أن الاتجاه الرومانسي ضمن مسار حركة النقد الأدبي الحديث، جاء كرد فعل لمختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية والنقدية الكلاسيكية التي ظهرت في تلك الفترة من القرن الماضي، بحيث قيدت الكثير من المبدعين في عمليات التشكيل الفني والجمالي، وبالمقابل فقد راح هذا الاتجاه النقدي يحرر المبدعين من القيود الشكلية والمضمونية، من أجل فسح مجال كبير لبروز الإبداع وفق رؤى تحررية وخلاقة.

[1]– إيليا حاوي: إيليا أبو ماضي. دار الكتاب، د.ط، بيروت، 1972، ص39.